إشارات في طريق «بلوك» الشعري

بقلم حسب الشيخ جعفر

يمكن تحديد مرحلة الابداع الفني للشاعر الروسي الكساندر بلوك بين عامي ١٨٩٨ – ١٩١٨ . وعبر هذه الفترة كان قد عاش وعانى عملية تطور وعيه الاجتماعي والفني المعقدة . لقد بدأ بلوك شاعرا غنائيا « ذاتيا » دائرا حول نفسه وحدها ، ولم تتفتح ، بعد ، امامه الآفاق الاخرى ، آفاق القصيدة البلوكية . كان عالمه آنذاك مغطى بالضباب والاحلام والسكون الصوفي الغامض . مجموعته الشعرية الاولى « قصائد عن السيدة الرائعة » كانت تحفل باحاسيس وتطلعات انسان حائر ، مترنح ، في عالم يفر من يديه دون ان يمسك منه شيئا . لم يكن يعبأ بعالم الاشياء والناس الذي يحيطه . لانه وجده عالما فارغا كالجوزة الفارغة التي لا يعني انفجارها شيئا . كانت الاشياء تفقد في اصابعه اي لون او طعم . وكانت عيناه التائهتان تتعلقان باذيال اطياف « سماوية » هاربة . كان يراها حلما « رائعا » سوف يتجسد على الارض .

لم يكن بلوك يملك ، يومئذ ، علاقة ثابتة مع العالم ، مع الآخر . لم يكن يريد ان يلتفت الى الآخر .. لانه لا يعني شيئا بالنسبة له بقبحه وانهياره كانهيار الجدار المنخوب ، لقد تفتحت عيناه على واقع مهزوز ، متهريء ، ملطخ الوجه بالاصباغ الرخيصة .. كانت الروح تهفو الى شيء آخر ، شيء « رائع » على نقيض تام مع الوجه العجوز المتفضن ، المتلفع باسمال راجفة في ريح الخليج الفنلندي . كانت روسيا الهرمة تحتضر .

كان بلوك ينطلق في قصائده ، يومئذ ، من موقف الشعراء الرمزيين . وقد كان همهم الوحيد « الفرار من شواطيء العالم المتهريء » . كان بلوك كغيره من الشعراء الروس الرمزيين الشباب هائما في عالم الشاعر والفيلسوف الروسي الرمزي « سولفيوف » . وفي افكار سولفيوف وجدت الفلسفة الافلاطونية والافلاطونية المحدثة استمرارا جديدا لها في موضوع ثنائية طبيعة العالم والتناقضات القائمة بين الواقع وماهية الوجود المثالية . ليس العالم الواقعي الا ظواهر عابرة يقابلها عالم الغيب ، عالم المثل الازلية ، عالم « الواقع » السامي الاصيل ، ليس العالم الواقعي الا انعكاسا مشوها « متوهجا » ببريق الاشياء المرئية والمفهومة بالتجربة . وحين يؤكد سولفيوف الترابط بين عالم « المثل الازلية » وعالم الظواهر العابرة ، يذهب الى ان الواجب الانساني هو اعادة توحيد الارضي والسماوي عبر « الوصول » الصوفي الى العالم العلوي .

وفي هذا الوصول يكمن كنه النشاط الفني عند الانسان .. الذي يستطيع بقوة تطلعه الروحي ، بقوة بصيرته الصوفية ان يثب الى « مشروع العالم الاول » ويدرك جوهر الظاهرة الداخلي ، الكامن خلف حدود التجربة الحسية ، ويلمس « النار الالهية » التي تلتهب تحت قناع المادة الهامدة .

كانت الشخصية المركزية في اعمال هذا الفيلسوف الروسي الصوفي هي روح العالم – الانوثة الازلية ، والتي يمكن تصورها كالبداية الالهية المطلقة والشاملة ، والتي ينبغي ان تهبط على الارض ، وتبعث في الانسانية « الهالكة » حياة جديدة .

من هنا تبدأ معاناة الكساندر بلوك الذاتية ، وتحسسه « للسقوط » التراجيدي للعالم القديم ، عالم روسيا المحتضرة . كان بلوك يقول : « اني ارى في قلق هذا العالم الهائل بداية النهاية الشاملة الكبرى » . الشيء الذي ينبغي ان نؤكده هو ان بلوك حاول ان يبني على صوفية سولفيوف « الارضية » آماله في تجديد العالم . كان بلوك يحلم بانسان المستقبل الشمولي الرائع .. انسان الانسجام المطلق . كانت « روح العالم – الانوثة الازلية » تعني بالنسبة لسولفيوف طبيعة العالم الموحدة الداخلية ، التي تعيش في جميع الظواهر ، والتي تجسد الوحدة المثالية العالية ، وتمثل الهدف والمعنى في عملية التطور التاريخي العام . وداخل مثل هذا الاطار « الكوني » ، في قصائده الاولى ، وجد الشاعر منطلقا للفكرة التي التهمت روحه طويلا ، فكرة التوافق بين حياة الانسان الذاتية والوجود الكوني المطلق ، احساس بامتزاج نفسه « المتفردة » مع « روح العالم » الموحدة الشاملة . « انا والعالم » كان هذا منطلق بلوك الشعري ، الذي يؤكد توافق واتحاد الانسان الفرد بالكون .

ان الفكرة الاساسية النفسية في مضامين « قصائد عن السيدة الرائعة » تتلخص بالاحساس ، عبر معاناة ذاتية ، والشعور بالوجود الكوني الابدي ، الذي يفتح الطريق من ظلام « الليلة المدلهمة » الى النور العظيم « للنهار الآتي » . غير اننا نتلمس رغم هذه التطلعات الصوفية الباردة تقاطيع « انسانية في وجه السيدة الرائعة .

ومنذ عام ١٩٠٤ كان بلوك قد اخذ يبتعد عن صوفية سولفيوف ، ولكنه ظل يتلفت اليه حتى في اخريات

ايامه . لقد انفتح امامه عالم آخر .. دستويفسكي . كان دستويفسكي يأخذ بيدي بلوك المرتجفتين ، وبخطى شبحية ، عبر ضباب « المدينة » المرعبة . وقد اخذت تظهر قصائد « المدينة » ولكنها لم تزل مسربلة بالغموض والدهشة « الاولى » . لقد انكشفت امامه المدينة بكل تناقضاتها ، بكل عريها المفضوح . كان بلوك ، يومئذ ، يقول : « لقد كنت اعرف قبل الثورة الاولى « ١٩٠٥ » بان التعاسة والتوتر في كل مكان ، وبان الفاجعة آتية لا ريب فيها » . كانت ثورة ١٩٠٥ قد ازاحت الستار عن « وجه الحياة وقد استفاقت توا من النوم » . ولم يكن تفسير بلوك ، بالطبع ، لمشكلة الثورة الروسية، تأريخيا وسياسيا، بالتفسير « الثوري » . لقد اختلطت الاحداث بالنسبة له ، ودخلت الثورة ، عنده ، في تناقض « قدري » مع مشكلة مصيره الشخصي نفسه . كان بلوك يفهم الثورة كعقاب عظيم وعادل لا مفر منه ينزله الشعب باعدائه انتقاما لاوجاعه وتعاساته عبر القرون المظلمة الطويلة . كان بلوك يتمزق باعتقاده ان هذا العقاب العادل نازل به هو ايضا . لقد كان الشاعر ينتمي الى عائلة ارستقراطية. ولا شيء يستطيع انقاذه ، لانه هو ايضا ينتمي الى « العظم الابيض ، ولانه لم يزل ينوء تحت اثقال من « خطايا الآباء » .

كان بلوك يرى مهمة الكاتب والفنان في ان « يعري روحه امام اولئك الجائعين روحيا » . كان يرى ، في ذروة تطوره الفني ، ان الثقافة هي اكتمال الوعي ، روح التماسك الموسيقي ، نظرة شاملة على العالم ككل . مثل هذه الثقافة كانت تشير الى العصر الموسيقي العظيم ، عصر « الانسانية » . كانت مسألة « الانسان الجديد اكثر المسائل الاجتماعية اهمية بالنسبة الى بلوك . وكانت بدايات هذه المسألة تلوح في مفاهيمه الفنية الاولى : انسان المستقبل ، انسان الانسجام التام . والاضافات الجديدة الى هذه الشخصية المثلى هي عنصر « الفنية » والفعل والحماس ، وهي ايضا تحس نفسها متحدة بالوجود الكوني ، منطلقة في تطوير قواها الروحية والبدنية . لقد وجدت هذه الشخصية تجسيدا رائعا لها، وان لم يكن مكتملا تماما ، في ملحمة « العقاب » والتي بدأ كتابتها عام ١٩١٦ . وقد امتدت هذه الخطوط الجديدة الى اعماله المسرحية الشعرية ايضا . وكان قد تعرف على اعمال ستردنبرغ الدرامية والتي تركت عنده اثرا هاما .

لقد بدأ العنصر التاريخي يدخل اشعار بلوك المتأخرة كشخصية مركزية ، متمثلة بالروسيا . وقد بدأ هذا واضحا في مجموعة « العالم المخيف » وملحمة « العقاب » وفي مسرحيته الشعرية « الوردة والصليب » ولقد كانت اكثر اعماله المسرحية الشعرية اقترابا من « الواقعية النقدية » رغم اطارها « التراجيدي الابدي » .

في عام ١٩١٧ كان قد انهار عالم باكمله . ولم يعد سولفيوف الا شبحا مرعوبا متلفعا في ضباب الشطآن . وكانت مكتبة بلوك ، في منزله الريفي ، قد امتدت اليها ايدي الموجيك الخشنة واحرقتها .. كان بلوك بالنسبة لهم « سيدا برجوازيا » ينبغي ان ينتهي تماما .. لان القصر الشتوي نفسه قد تلوثت سلالمه المرمرية الرائعة بوحول احدية الجنود الحمر . وكان مايكوفسكي اذا ما تذكر بلوك تذكره طيفا تائها بعينين مذعورتين منتظرا على الساحل الفنلندي ظهور السيد المسيح آتيا اليه مشيا على الامواج . لكن بلوك لم يكن كذلك تماما .. كما انه لم يكن « سيدا برجوازيا » . كان ايضا يتمزق من اجل الروسيا الكبيرة . كان « ثوريا » على طريقته « الكونية » الخاصة . كان في غرفته يدق بمطرقته « الشعرية » على الرأس البرجوازي الهرم .

كانت ثورة ١٩١٧ بالنسبة لبلوك « بداية الحياة » . كان يرى اهمية الثورة في انها توقظ الانسان كليا الى الحياة ، وتفتح اعماق الوعي التي ظلت مقفلة بقوة . ولقد كانت الثورة تلتهب في شعره ايضا . لقد طلع بملحمته الجديدة « الاثنى عشر » . كان بلوك يؤكد ، خلال كتابته هذه الملحمة وبعدها بايام ، انه قد أحس بضجيج هائل ، يدور حوله . ولعله ضجيج انهيار العالم القديم . ولكنه جعل المسيح ، رغم كل هذا ، يتقدم جنوده « الاثني عشر» الحمر . أهو تأكيد على اتحاد الارضي بالسماوي ؟ ربما .

قصائد مختارة

... ... (١)

كثيرا ما التجيء الى الهياكل المعتمة
واقوم بطقوس مسكينه ،
متوسلا ان تلوح السيدة الرائعة
في تألق القناديل الحمر الخافت .

وفي الظل عند العمود الاشم
ارتجف لدى كل صرير ينبعث من الباب .
وفي الوجه مني تحدق
الصورة المضاءة وحدها ، طيف منها ليس غير .

آه لقد تعود البصر على هذه المسوح
التي تسربل الزوجة الازلية .
وعاليا تتراكض على الافاريز
البسمات والخرافات والخيالات .

آه ايتها الطاهرة ، لكم هي حنونة تلكم الشموع
ولكم هي سارة تقاطيعك .
لا الزفرات اسمع ، ولا الهمسات
انما أنا على يقين : حلوة انت .

١٩٠٢ من مجموعة « قصائد عن السيدة الرائعة »

الغريبة

فوق المطاعم ، في ساعات الفسق المسائي
يمر الهواء الحار سريا وخافتا ،

---

١ ـ لم تكن القصيدة تحمل عنوانا في الاصل .

ويسوق ولولة السكارى
روح ربيعي قاتم .

وبعيدا ، على غبار المنعطفات
وكآبة اكواخ الضواحي ،
يلتمع ذهب كعكة غاربة
ويرتفع انين طفل .

في كل أمسية ، عبر حواجز الطرق
بقبعاتهم المائلة بصلافة ،
يقود الرجال ذوو الذهن الحاد
سيداتهم عبر الخنادق الجافة .

وعلى البحيرة تصر مقابض المجاديف
وتعلو صيحات نساء ثاقبة ،
وفي السماء ، مثلما تعود ، في وجه كل شيء
يمط قرص شفتيه باحتقار .

وفي كل امسية ، صديق واحد
أراه مرتسما في قدحي .
وبتأثير خمرة سرية ولاذعة
مذهول مثلي ومهجور .

وبين الموائد المجاورة
يتسكع خدم يغالبهم النعاس ،
ويهتف سكارى لهم عيون الارانب :
الحقيقة في الخمر .

وفي كل امسية ، في ساعة معينة ،
(أم ان هذا يخيل لي وحدي ؟)
قامة شابة ، ملتفة بالحرير ،
تلوح في ضباب الشباك .

وبخطى بطيئة ، تتقدم بين السكارى ،
وحيدة دونما رفقة ،
وبانفاس ضباب وارواح ،
تجلس لدى الشباك .

حريرها الفضفاض
يفوح بعقائد غابرة ،
قبعتها بريش نعام جنائزي ،
ويدها النحيلة بخواتم .

أجدني مكبلا بقرابة عجيبة
متطلعا عبر عتمة النقاب ،
فأرى شواطيء فاتنة
وابعادا خلابة .

اسرار مهجورة مودعة لدي ،
وشمس ما قد وضعت في كفي ،
وكل منعطفات نفسي
قد دمرتها خمرة لاذعة .

ريش النعام المقوس
يرتجف في دماغي ،
وعينان زرقاوان لا قرار لهما
تزهران في الضفة النائية .

في صدري يختبيء كنز
مفتاحه أعطي لي وحدي .
محق انت ايها الغول السكير
أنا ادري : ان الحقيقة في الخمر .
١٩٠٦ من مجموعة « المدينة »

كليو بتـــرة

متحف الشمع الكئيب ، وقد مر عليه
عام وثان وثالث ، ولما يزل مفتوحا .
ونحن نحث الخطى اليه
حشدا من السكارى والوقحين ، حيث تنتظر الملكة ..

مستلقية في تابوتها الزجاجي
ليست بالحية ولا الميتة .
وهمسات الآخرين القذرة
تدور حولها دونما انقطاع .

متمددة ، على طولها ، بكسل
لتنسى الى الابد ، ولتغفو الى الابد ..
وبلطف وتأن
تلدغ الافعى ثديها الشمعي .

وانـــا الخاطيء المدنس
بدائرتين زرقاوين حول عيني
اتيت لاتمتع بمنظر جانبي
من الشمع ، يعرض تحت كل عين .

كل صعلوك بمقدوره ان يبحلق بك الآن
ولو لم يكن تابوتك فارغا
لسمعت شفاهك الرماد
وهي تزفر بهمستها المتفطرسة .

قربوا مني المجمرة واكاليل الزهر
انا التي كنت في غابر الزمن
ملكة مصر المتوجة
لست الآن الا شمعا . أنا العدم ، أنا الهباء .

ايتها الملكة ، أنا أسير يديك .
عبدا رقيقا كنت بالامس في مصر
وقد حكم القدر بان أصبح اليوم
شاعرا وملكا .

اتراك تبصرين عبر زجاج التابوت
ان روسيا ، مثل روما ، مخمورة بك ؟
وانـــا وقيصر
نملك المصير نفسه عبر القرون ؟

صمت . لم تكن مصغية
غير ان صدرها يخفق بلطف

عبر الغلالة الشفافة .
وكنت أسمع همسا خافتا يقول :

يومذاك كنت سيدة العواصف
واليوم انتزع اكثر الاشياء حرقة :
دموع الشاعر المخمور
وقهقهة البغي المخمورة .

فـي المطعم

أبدا لا أنسى (كان ، أم لم يكن ،
هذا المساء) : بلهيب الفسق
توهجت السماء الشاحبة ،
وتفتحت القناديل في الصفرة .

في القاعة المزدحمة جلست حيث الشباك
وثمة اجهشت اوتار عاشقة .
بعثت اليك بوردة سوداء في قدح
مترع بخمرة آي الذهبية كالسماء .

التفت . قابلت بتحير وتحد
نظرتك المتكبرة وانحنيت .
ومتعمدة قلت لرفيقك في حدة :
وهذا ايضا عاشق .

وفي الحال بشيء ما أجابت الاوتار مدوية
وبجنون ترنحت الاقواس .
وكنت معي باحتقارك الفتي
وبرعشة تكاد ترى في يديك .

واندفعت كطائر مذعور
ومررت رقيقة كحلم
فشهق العبير ، ونعس الهدب
وبقلق تهامس الحرير .

ومن اعماق المرايا ألقيت لي بنظرة
صارخة : خـذ ..
ووسوس العقد ، وتمايلت الفجرية
واعولت باكية الهوى .
١٩١٠ من مجموعة « العالم المخيف »

هـــوان

في فتائل الشجر العاري السوداء
خلف النافذة ، يتعلق الغروب الشتائي الاصفر .
(الى منصة الموت ، يساق المحكومون بالاعدام
في مثل هذا الغروب .)

قطيفة الارائك الحمراء الباهتة
وشراشيب الستائر المغبرة ..
في هذه الغرفة الضاجة برنين الاقداح
تجد التاجر والتلميذ والضابط ومحتال القمار .

تصاوير هذه المجلة الخليعة
ما لامستها الا يد غير بشرية ..
وخسيسة هي اليد التي داست
على زر هذا الجرس القذر .

اسمعي ! على السجاد الناعم
ترن الهاميز والضحك المختنق بالابواب المقفلة ..
ترى أهذا بيت ؟ أهو في الحقيقة بيت ؟
ترى هكذا هي علاقات الناس ؟

أأنا سعيد بلقاء هذا اليوم ؟
وبوجهك الابيض كالمنديل ؟
وبهذا الغروب البارد الهائل
الذي يخفق في اكتافك العارية ؟

الشفاه وحدها بقطرات دم خاثر
على ايقونتك الذهبية
(ترى قلنا ان هذا غرام ؟)
ارتسمت خطا مجنونا ..

في الغروب الشتائي الهائل الاصفر
غرق (يا للجلال !) السرير ..
لكم يضيق النفس من العناق ،
وانت تصفرين وتصفرين ..

لم يكن مرحا هذا الصفير المقابري ..
اسمعي ! مرة أخرى ، حفيف الستائر .
وكالافعى ينزلق من الاريكة على السجاد
ذيل ثوبك الثقيل ، المغبر ..

جريئة انت ! ولتكوني اكثر جرأة !
ما انا زوج لك أو خطيب أو صديق .
لتغرزي ، يا ملاكا كان لي بالامس ،
عميقا في قلبي كعب حذائك الفرنسي المسنون .
١٩١١ من مجموعة « العالم المخيف »

بغداد — **حسب الشيخ جعفر**